بناء الشخصية في ثلاثية نجيب محفوظ

فاطمة عيسى جاسم
كلية المعلمين–جامعة الموصل

«مدخل»

العمل الأدبي حقيقة واحدة وان تعددت المداخل والسبل ، فالمدخل الأدبي أو المدخل النفسي أو المدخل الفني كلها في النهاية تؤدي غاية واحدة . هي فهم كيان العمل الأدبي على أنه أثر فني يتألف من ألفاظ واختيار المدخل المناسب أمر راجع إلى ثقافة الدارس وحسه التأريخي وفطنته النفسية ، وربما كان بعد المدخل متناسباً مع عمق النظرة إلى العمل الأدبي والمقدرة على كشف اغواره .

وقول (كولن ولسن) في كتابه «فن الرواية» بان الرواية كالمرآة لابد وان يرى فيها الروائي وجهه وصورته الذاتية وما (وصف الحقيقة) و(قول الصدق) – وهما من الأهداف التي سعى اليها عدد كبير من الروائيين في القرن التاسع عشر – الا هدفان ثانويان الأول : ان يظهر الروائي نفسه والثاني ان يدرك ما هية هدفه الذات .»(١)

من أهم الأنواع الأدبية التي جدت في الأدب العربي الحديث الشكل الروائي . وموضوع بناء الشخصية عند نجيب محفوظ – على أهميته الشديدة – لم يرصد الجهد الكافي في معظم الدراسات التي كتبت عن الأدب الروائي لهذا الفنان .

ويهتم نجيب محفوظ ببناء الشخصيات الروائية عموماً والرئيسية على وجه الخصوص بطريقة فنية محكمة الصنع ، من خلالها تتكامل وتتفاعل مختلف العناصر التي تكون الرواية .

يتناول هذا البحث جانباً من جوانب البناء الفني للرواية ، وهو بناء شخصية البطل باعتبار الشخصية من أبرز أوجه الرواية العربية الحديثة ، وقد تناول البحث

(١) كولن ولسن – ت . محمد درويش . فن الرواية /٩ .

بناء الشخصية في ثلاثية نجيب محفوظ على ضوء التطور الاجتماعي الحضاري الذي شمل مصر فترة مطلعها عام ١٩١٧ حتى ثورة عام ١٩٥٢ . ولهذا حددت مادة البحث فجعلتها منحصرة في هذه الثلاثية لأنها تمثل فترة هامة من تأريخ مصر الحديث .

هذه هي نقطة البدء في هذا البحث التي تعتمد أساساً على العمل الفني بصرف النظر عن أي أحكام صدرت عليه من قبل ... ولذلك لم أحاول تبويب الدراسة إلى اشكالات وقوالب جامدة تقليدية بل تركت التسلسل التأريخي لثلاثية نجيب محفوظ بأجزائها الثلاثة يشكل الهيكل العام للبحث.

«ماهية الشخصية»

تعتبر الشخصية من ابرز اوجه الرواية الحديثة ، وتشكل الشخصية العنصر الرئيسي في البناء الفني للرواية ، ولكي نتعرف على ماهية الشخصية لابد من الالمام بجميع المعالم النفسية والفكرية للشخصيات الروائية والظروف المحيطة بها .

لقد تعرض علماء النفس في العالم لدراسة الشخصية واختلفوا باختلاف نظرياتهم المتعددة في تحديد الملامح العامة للشخصية ، ومما شجع هذا التمايز بالاراء وتعدد النظريات والتعريفات ، فالشخصية الانسانية هي موضوع البحث ..... ان هذه الشخصية ليست شيئاً ذات صفات ثابتة يسهل الاحاطة بها ومعرفة أبعادها فالبطل في الاعمال الادبية هو — من هذه الناحية — (مقياس لشعور الانسان بالازمة) (١) .

ان اختلاف علماء النفس في تعريف الشخصية وتحديد ابعادها عائد إلى كون الانسان يتمتع بسمات متعددة ومختلفة من شخص لآخر ولكنها في النهاية تعود وتصب في مجرى واحد هو النموذج العام للشخصية .

---

(١) د. شكري محمد عياد — البطل في الأدب والاساطير /١٤٨ .

«هناك تفاوت كبير في الصفات الشخصية حتى بين اولئك الذين يقتربون من الكيانات النموذجيـــة للشخصية فلا يـوجد شخصان من الجنس نفسه والعمر نفسه والمركز الاجتماعي نفسه ومن القسم الحضاري نفسه لمجتمع واحد يملكان تجارب متطابقة» (١)

فعندما يتعامل الروائي مع العمل الادبي ، لابد من الاحاطة الكاملة بكل مايضمن حرية شخوصه في عالم من صنعه يسعى باستمرار لاخفاء جو تماسكي على روايته ، فيلجأ إلى الزمن التأريخي والحبكة المعمارية وحركة الشخوص الدرامية (٢) .

نجيب محفوظ والثلاثية

يمثل نجيب محفوظ ظاهرة ادبية متفردة تتميز عن غيرها من حيث طريقة استخدامه الوسائل الفنية التي يتحقق بواسطتها العالم الروائي وهو ينبض ويضطرب اضطراب الحياة وان لم يكن مطابقاً لها .

يوجه نجيب محفوظ همه إلى معالجة موضوعات وقضايا استقاها من صميم الحياة المصرية وقد خص جانبا هاما منها وهو جانب الحياة الاجتماعية والسياسية عناية خاصة . ويجيء اهتمامه هذا نتيجة عدة عوامل منها : —

نشأته في حي الجمالية الشعبي .. ومنها معاصرته حقبة في تاريخ مصر والمجتمع العربي كانت فترة تحفز وصراع في سبيل الانبعاث الجديد للمجتمع على الصعد كافة الاجتماعية والثقافية والفنية فتأده هذا إلى الالتحاق بحياة العامة والغوص في مشكلاتها وكشف معاناتها وتعميق احساسها بجراحها والامها وهذا يبدو واضحاً من خلال ثلاثية نجيب .....التي تعرض في اكثر من الف ومائتي صفحة لحياة مصر فيما بين عامي ١٩١٧ — ١٩٤٤ من خلال عرضها

(١) وينظر — احمد ابراهيم الهواري — البطل المعاصر في الرواية المصرية /٤٨ .
(٢) د. حلمي المليجي — علم النفس المعاصر /٣٠٩ .

لحياة اسرة مصرية من الطبقة المتوسطة فتقدم لنا من خلالها مفاهيم وقيم الطبقة المتوسطة للكفاح الوطني وللمتعة والتقاليد الاجتماعية وكيفية تطور هذه المفاهيم من خلال ثلاثة اجيال من عمر الطبقة المتوسطة المصرية .

هي اسرة السيد (أحمد عبدالجواد) وقد طرحت قضية الانتماء على اوسع نطاق وفي مستوياتها المتعددة فالاولى (بين القصرين) وتقع احداثها بين عامي ١٩١٧ — ١٩١٩ وهي تمثل حركة الانتماء إلى الحزب الوطني والارهاص لتكوين حزب الوفد .

الثانية (قصر الشوق) تقع احداثها بين ١٩٢٤ — ١٩٢٧ وقد مثلت الأزمة بين الانتماء إلى حزب الوفد والانتماء اليساري المتكامل أما الثالثة (السكرية) فان احداثها جرت بين عامي ١٩٣٥ — ١٩٤٤ . وقد جسدت الانتماء الايجابي إلى اليسار ، وقد ركز نجيب محفوظ في الثلاثية على حركة المجتمع العربي في مصر ابان هذه الفترة التاريخية وما حل بمصر من احداث . لكنه لم يعالجها كلها روائياً بصورة مستمرة بل نجده يتوقف بين كل رواية واخرى بضع سنوات ليبدأ بعدها بفترة هامة من تطور المجتمع .

«انه لم يكن مؤرخاً . ولكنه كان النبض دافق الحيوية لعوامل التغيير والتطور لما يصيب المجتمعات والبشر ، ويؤثر تجسيد البيئة» . (١) .

بناء الشخصية في الثلاثية

ان ابرز ما تتجلى به ثلاثية نجيب محفوظ هو عملية البناء الفني للشخصيات الروائية بصفة عامة والشخصيات الرئيسية بصفة خاصة لكونها تمثل العصب الحي والمؤثر في البناء الفني للثلاثية كلها والتي من خلالها تتفاعل وتتكامل مختلف العناصر الروائية الاخرى كالحدث والزمان والمكان والشخصيات الاخرى .

والواقع ان شخصيات نجيب محفوظ الروائية الرئيسية او غير الرئيسية مستمدة من الواقع الاجتماعي والفكري والحضاري الذي يعيشه المجتمع

(١) د. حامد النساج — بانوراما الرواية العربية الحديثة — ٦٠ .

والفرد جزء من هذا المجتمع .

«فهي شخصيات متنوعة من قلب الحياة المصرية ، فهو سواء كانت شخصيات تأريخية او مبتكرة تتحقق فيها الصفات الواقعية لان المعول عليه في واقعية الشخصية الفنية ليس ما اذا كانت شخصية حقيقية من دم ولحم وقد عاشت بالفعل ان شخصيات محفوظ شخصيات واقعية بالفعل سواء كانت متنوعة من صميم الحياة ام هي اختراع نجيب محفوظ» (١) .

فشخصيات نجيب محفوظ هي مجموعة صور مأخوذة لشرائح مختلفة من الحياة الانسانية في حيز مكاني وزماني ووظيفي .

« تتماثل كل شخصيات نجيب الروائية في كونها مستمدة من أرضية ثابتة ، هي تصوير الشقاء الانساني ، فرؤيته حضارية تصور في اطارها العام صراع الانسان المصري في تأريخه الحديث مع كل وجوه التخلف المادي والمعنوي »(٢) .

يتعامل نجيب محفوظ مع شخوصه فاسحاً المجال لطبائعها وغرائزها بالظهور أثناء تعاملها مع الحالات والحوادث .انه يضعهم في مكان وزمان مشروطين بعوامل متحركة لابد ان يتخذوا ازاءها سلوكاً معيناً وحتى الكلمات التي تنساب معبرة عن أمزجتهم ودخائل نفوسهم تحمل حركة فعلية وحسية في آن واحد »(٣) .

وشخصياته في الثلاثية تخضع إذن لعاملين هما الوراثة والبيئة وهذا هو سر احتفاله بالبيئة وسبب رجوعه إلى ماض الشخصية من ذلك انه يحدثنا عن السيد (أحمد عبد الجواد) الشخصية الرئيسية في الثلاثية في ثمانين صفحة

(١) اسعد اسكاف – الواقعية الروائية في ادب نجيب – الاقلام / العدد الخامس السنة ١٩٨٩ ص ١٣٣ .

(٢) د. بدري عثمان – بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب /٢١٥ .

(٣) د. محسن الموسوي – حول مفهوم البطل في الرواية العربية /٧/ الاقلام / السنة التاسعة العدد ١٩٧٣/٣ .

وياسين الإبن الاصغر في خمسين صفحة وتناول شخصية كمال عبد الجواد في مائة وعشرين صفحة من صفحات (قصر الشوق) وحدها .

بناء الشخصية في أجزاء الثلاثية

أ ـ الشخصيات الرئيسية : ـ

تعرض الثلاثية نماذج متنوعة من الشخصيات فيها الفاضل وغير الفاضل، الايجابي الملتزم مثل شخصية (أحمد شوكت ، وشقيقه عبد المنعم) والسلبي مثل شخصية (كمال) ومنها الوطني المنتمي مثل (فهمي) والغير منتمي اللامبالي مثل شخصية(ياسين)وفيها الملحد أوالمتدين المتمثل بشخصية رئيسية رب الأسرة (أحمد عبد الجواد) والمتدين بشخصية رضوان ... الخ فهي زاخرة بمختلف قطاعات المجتمع من تجار وموظفين وطلبة وغانيات وجواد وخدم وبنات أسر متوسطة ... الخ .

« فهي تعبر عن صدام وصراع وتناقض من أجل اكتشاف الجديد واستيعاب من أجل الوضوح الفكري والسعادة النفسية والتوافق الاجتماعي »(١).

١ ـ بين القصرين ١٩١٧ ـ ١٩١٩

تبتدأ الثلاثية بالجزء الأول الموسوم (بين القصرين)والشخصية الرئيسية التي تلعب دوراً بارزاً فيه هي شخصية (أحمد عبد الجواد) رب الأسرة المصرية والذي يمثل الجيل الأول جيل القيم والمفاهيم التي كانت تتمسك بها الأسرة .

تعيش هذه الشخصية بشخصيتين منفصلتين تماماً شخصية جادة رهيبة محافظة ومتدينة فهو الاب القادر صاحب الكلمة المطاعة وهذا ما جاء على لسان ابنته الصغرى عائشة : ـ

« كيف تنسى ان كلمة واحدة لو جاد بها لسان
أبيها كانت تكفي لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقا

(١) محمود امين العالم ـ تأملات في عالم نجيب /٦٣ ـ ٦٤ .

جديداً .. فلم تضمر له إلا الاخلاص والوفاء كأنه اله لايجوز ان تقابل قضاءه الا بالتسليم والحب والوفاء »(١) .

وشخصية ماجنة في سهراته مع اترابه وتنسحب نظريته الاسلامية إلى تبرير سهراته الحمراء ، فهو يعتبر غزواته مع الغواني عملاً مشروعاً فالغواني كالجواري في عهد الاسلام الأول . فهو رجل لاه بحياته الصامتة وملذاته.

« ولم يكن من عادته ، ان يشغل نفسه بالتفكير الذاتي أو التأمل ، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقاً فيه »(٢) .

وإذا جدت هذه الشخصية لاتتعدى الحدود فيغطي على حياته الماجنة

« كذلك جمعت حياته شتى المتناقضات بين العباد والفساد وحازت جميعاً رضاه على تناقضها دون ان يدعم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تبرير ...»(٣)

ان شخصية السيد أحمد عبد الجواد التي شهدت في كهولتها ثورة ١٩١٩ وآمنت بها وبقائدها (سعد زغلول) لكنها لم تشارك فيها إلا بقدر يسير ولم يكن أكثر من عاطف على الحزب الوطني والثورة ولم يشارك بأي نشاط سياسي أو حزبي حتى في احرج اللحظات السياسية يكتفي باسلوب التاجر بالتبرع بجزء من ماله وكان يرى في ذلك غاية الوطنية : —

« وبالتالي قنع دائماً من وطنيته بالعاطفة والمشاركة الوطنية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة.. ليس الوطن في حاجة اليه على حين يتلهف هو على كل دقيقة منه لينفقها في اسرته أو تجارته أو على

---

(١) بين القصرين /١٨٤ .
(٢) المصدر نفسه /٥٠ .
(٣) = /٥١ .

الخصوص في لهوه بين الأحباب والخلان ، ليكن
اذن وقته خالصاً لحياة ،والوطن ما يشاء من قلبه
وعواطفه ، بل ماله كلما تيسر »(١) .

عند احتلال الانكليز لمصر وحين اقتاد الانكليز (أحمد عبد الجواد) ليعمل بالسخرة ... اعترف لنفسه بانه لا شأن له بالسياسة والكنز جبروته اهتزازاً عنيفاً يوازي عنف الحرية الانكليزية التي دفعته ليعمل بسخرة في اصلاح الطرق التي حفرها الثوار لعرقلة التحركات الانكليزية .

« قال : لا طعم للحياة في ظل الثورة »(٢) .

وهذا القول يبين موقفه المتخاذل والمهزوز والمتردد من احداث ثورة ١٩١٩ ثورة الجماهير البائسة ، وتؤكد عزلته عن الجماهير دون ان يمارس أي نشاط سياسي أو حزبي . فهي شخصية خائنة قلقة مزدوجة في سلوكها وتصرفهما وفي حياتها الخاصة والعامة .

والشخصية الثانية من الجيل الأول هي شخصية الأم . فأمينة وما يوحي به اسمها من كل ملامح وقسمات هذه الشخصية الوديعة الحنونة الوفيـــــة المخلصة الأمينة .

« فأسمها يوحي بكل ملامح وسمات وقسمات هذه
الشخصية فمن الامانة استقامت حياتها التي قامت
مع الاخلاص والوفاء وعاشت على المحبة والتسامح
والصبر والايمان »(٣).

فقد نجح المؤلف في تصوير هذه الشخصية تصويراً باهراً عندما اضفى عليها كل صفات الكمال والأمومة فهي على طول الرواية كانت مودة ورحمـــــة وحنان غامر أضفى على جو الأسرة السكينة والطمأنينة حتى مع مواقف زوجها

(١) بين القصرين /٣٧٩ .
(٢) بين القصرين /٥١٩ .
(٣) سليمان الشطي – الاتجاه الرمزي /٨ .

المتقلبة غير الثابتة فطيبتها غامرة حتى مع زوجها رغم معرفتها بكل عيوبه ونقائصه ، فهي تعرف كل ما ينطوي عليه من عيوب وهي أول من تعرف عن سهراته الماجنة ومغامراته مع الغواني ذلك الجانب الخفي من حياته التي لم يعرف عنها أي فرد من أفراد الأسرة سوى ابنه ياسين الذي علم بها متأخراً فان سلوكيتها السليمة هي التي علمتها الكتمان وحفظ اسرار اسرتها دون الكشف عنها فتخفي معاناتها من سلوكية زوجها . فهي امينة بكل ما توحي لنا هذه التسمية من معانٍ ورمز رائع وجميل .

والشخصية الثالثة التي تسهم بدور رئيسي أيضاً في هذا الجزء من الرواية هي شخصية الإبن المثقف (فهمي) كان فهمي من انصار الحزب الوطني يطالب بخروج الانكليز والاستقلال ، وعندما اشتعلت نار الثورة وشملت كل الناس ، فقد عاشها (فهمي)وخاضها بكل حياته وثوريته . فقد عاش حياة حافلة طيلة أيام الثورة وليست حياة رتيبة ذليلة وجاءت الثورة تعبير عما يثور في داخله بعنف ، وقد واكب الثورة من أولى لحظاتها .

فقد استغرق المؤلف في وصف احداث اليوم الأول للثورة بالتفصيل وكيف انضم اليها « فهمي » وهتف معها بشعارات الثورة الوطنية .

« ان فهمي — بين القصرين — برغم كونه بطلاً وطنياً مشتركاً في جمعية من الجمعيات السرية المنتشرة ابان ثورة ١٩١٩ الا أنه بطل غير واعٍ — غير ثوري — فهو يقف في صف العسكريين الالمان جرياً وراء الوهم القائل بان انصار الحرية الجدد ما داموا اعداء الانكليز »(١).

ان فهمي يعيش عالة على الأحداث الوطنية .

« وذاع نبأ بين الطلبة عجيب كان حديثنا اليوم كله وهو ان وفدا مصرياً مكوناً من سعد زغلول وعبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي باشا توجه

(١) احمد محمد عطية — مع نجيب محفوظ /٤٥ .

أمس إلى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة
برفع الحماية والاستقلال »(١).

لجأ فهمي إلى العمل الوطني كبديل للحب الرومانسي الفاشل مع جارته (مريم) التي شاعت صلتها بالجنود الانكليز . انه يشارك بقوة وغيرة شاب جرحه الانكليز في حبه وسرقوا اخلاص حبيبته بالهدايا . ثم اجهزوا عليه وهو في قمة ثورته الشخصية والوطنية ، وقد تقدم صفوف الطلبة وقاد المظاهرة وحين فعل وتسلم زمام البطولة والقيادة غدر به الانكليز وقتلوه .

« وصدم نبأ موته والده أحمد عبد الجواد الذي
ظن ان عهد القتل قد انتهى وبموت فهمي تنتهي
رواية القصرين »(٢).

٢ ـ **قصر الشوق** : ـ

اسم شارع يسكنه ياسين بعد زواجه من مريم .

هذا الجزء الثاني من الثلاثية يتقدم نبأ المؤلف نجيب محفوظ سنوات في حياة اسرة السيد أحمد عبد الجواد . فنلتقي بشخصية أخرى هي شخصية « كمال » وقد حصل على البكالوريا واتجه تفكيره لدخول مدرسة المعلمين مستشرقاً من وراء ذلك إلى آفاق العلم والثقافة والمعرفة ... وقد كان اصرار كمال على دخول الكلية مفاجأة للأب الذي رفض ان يكون ابنه معلماً لأسباب مظهرية لا غير . وظل كمال يؤمن ايماناً عميقاً بالفكرة ولم يتزعزع وقال : ـ

« بأن حياة الفكر اسمى غاية للانسان تتعالى بطبعها
النوراني على المادة والجاه والألقاب وسائر ألوان
العظمة الزائفة »(٣).

---

(١) بين القصرين / ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .
(٢) بين القصرين /٥٧٥ .
(٣) قصر الشوق /٤٠٩ .

وقد دارت بين كمال ووالده مناقشة حول الموضوع ولكن لم يجد نفعاً ولم يضعف من اصراره وعزمه على تنفيذ ما تصبو اليه نفسه وأكد ان دخوله كلية المعلمين ليس رغبة خاصة بل أنه السبيل الوحيد لتغذية الروح بالفكر والثقافة والمعرفة .

« ليس بي رغبة في ان أكون معلماً ، بل لعلي لم أقبل هذا الا انه السبيل المتاح إلى ثقافة الفكر »(١).

ويستمر الكاتب نجيب محفوظ في تصوير شخصية كمال التي اختارها المؤلف ليبرز من خلالها تدهور القيم والتقاليد التي حققتها الثورة التي امتدت احداثها ١٩٢٤ – ١٩٢٧ . فهذه الشخصية المثقفة غير المنتمية لم تكن هذه الشخصية تمثل نفسها بل تمثل جيل المثقفين في مصر .

« لم يكن كمال يمثل نفسه ، بل يمثل جيل المثقفين وعى رسالته وحدد لنفسه بداية الطريق ... ولكن عوامل كثيرة قد عوقت خطوات هذا الجيل وأزمت وجوده لانها كانت أضخم من قدرته النضالية على تغيير الأوضاع فانتكاس الحركة الوطنية بعد موت سعد ، وتزييف الارادة الجماعية بواسطة زعماء الاقليات طمعاً في الحكم وانهاء قيم الفكر والثقافة في مجتمع سيطر عليه الانحلال الخلقي وخلا من تكافؤ الفرص . كل هذه القوى المدمرة هي التي وضعت بذور الأزمة النفسية لجيل المثقفين بعد ثورة ١٩١٩ »(٢) .

فقد برع الكاتب نجيب محفوظ في رسم شخصية كمال عبد الجواد كنمط يقدم قيم الطبقة التي ينتمي اليها والتي ينتمي اليها نجيب محفوظ نفسه.

---

(١) قصر الشوق /٦٠ .
(٢) انور المعداوي – ملحمة نجيب محفوظ – الاداب /٢١ .

فقد أبرز في شخصية كمال ازدواجية الطبقة البرجوازية الصغيرة ، المترددة دائماً . فكمال تصبو نفسه إلى المثالية ولكنه يصطدم بالواقعية فينتهجها . فالمشكلة التي تمور بها نفس كمال أنه يتشوق إلى الانتماء ومن ثم فهو يسعى إلى ممارسة حياته الوجدانية والعقلية ممارسة ايجابية مع المرآة التي أحبها (عايدة) والتي كان يعتبرها « المثال » حتى تتوفر لها السكينة المتبادلة لكنه مطحون بين التردد والشك والقلق .

ان مشكلة كمال هي الايمان المفتقد ان كمال بحاجة إلى الايمان المقرون بالعمل حتى يصل إلى درجة التوازن الوجداني والعقلي وهذا الايمان الضائع هو لب غربة كمال .

« لم اعد من سكان هذا الكوكب ، غريب أنـــا
وينبغي ان احيا حياة الغرباء »(١).

بهذه الكلمات ناجى كمال نفسه . لكن ما الذي أورث كمال هذا الهم المقيم الذي بات يؤرقه وأحال حياته كآبة مقيتة ؟

ونسى كمال ان معايشة التجربة شيء ، ومراقبتها من الخارج شيء آخر ان الايمان ليس بالتمني وانما هو ما قر في القلب وصدقه العمل وهذا هو ماعجزكمال عن الوصول اليه رغم وعيه الانساني به .

«والواقع أن أزمة كمال الفكرية لاتنفصل عن تطور الفكر المصري المعاصر الذي يقترب لمحو العقلانية والعلمية ويقوم على الاقتراب من الواقع ورفض الجوانـــب الغيبية في تراثنا القديم» (٢) .

ويأتي كمال ليحمل على كتفيه الهموم الفكرية لجيله وهو يعبر عن الأزمة الفكرية للواقع المصري. ان مشكلة كمال في جوهرها تجسيداً حياً نابضاً لمشكلة جيل مأزوم ، هذا الجيل الذي جاء ثمرة لمجتمع متخلف وكان عليه امانـــة التغيير فتذبذبت خطاه بين العبث وضرورة الفعل بين النظر والعمل . مشكلة

(١) قصر الشوق /٣٥٥ .
(٢) د. حسن حنفي – التجدد والترديد في الفكر الديني المعاصر – الفكر المعاصر /٢٩

كمال هي مشكلة واجهت الكثير من المصريين المثقفين . ويتضح هذا من خلال اجابة المؤلف نجيب محفوظ عن الصلة بينه وبين كمال فقال : «كمال يعكس أزمتي الفكرية وكانت أزمة جيل فيما أعتقد...» (١)

وقد اسرع خطو التحول لدى كمال ، وقد رأى كل شيء في الحياة مغاير لما حسب وقدر فقد أسفرت آماله العظيمة في مجال الفكر والثقافة والعلم عن مدرس بمدرسة ابتدائية ، فنجده يعود الى الاشياء التي ظنها — قديماً — نافهة ستعوضه عنها دنيا الفكر ، ولن يعبأ بها والثقافة تعوضه عن كل شي . فها هو يشعر بالغيرة ازاء المركز المرموق الذي استهان به قديماً . فهو يحسن السخط وشيئاً من الحسد تجاه صديق طفولته (فؤاد الحمزاوي) الذي صار وكيلا للنيابة . لقد صار كمال

«قلب أفعمته الآلام ، الم الحب الضائع وألم الشك وألم العقيدة المحتضرة» (٢) .

وتبقى شخصية كمال بين التردد والحيرة والشك . فيتحول ايمانه الديني الى الايمان بالعلم ومن الفلسفة المادية الى الفلسفة العقلية وقد وقف من العلم موقفاً يكتنفه الشك والريبة في مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية .

«حتى السياسة التي سمع حديثها منذ طفولته ، نراه يبدأ متحمساً لحزب الوفد ثم يتحول تحمسه الى حيرة دون أن يقدم على عمل ايجابي ... وكان لا يؤمن بحقوق الشعب بقلبه وان كان عقله لا يدري اين المفر . عقله يقول حقوق الانسان وحيناً آخر يقول بل البقاء للاصلح وما الجماهير الا تطيع ....» (٣) .

هذه التناقضات الموجودة في نفسه وفي واقعه وبيئته جعلت منه شخصية

(١) غالي شكري — حوار مع نجيب محفوظ — الاداب — العدد السادس / السنة ٨ حزيران ١٩٦٠/١٩ .
(٢) قصر الشوق /٣٧١ .
(٣) قصر الشوق /٣٧١ .

حائرة ضائعة بين الشك والوهم بين الواقع واليقين ... فحياته اسئلة مستمرة بلا جواب وشك بلا يقين هذه التناقضات هي التي خلقت البطل الحائر المتردد كمال عبد الجواد .

١ — السكرية : —

اسم الشارع الذي يقطنه آل شوكت .

تقع احداث هذا الجزء الثالث بين عامي ١٩٣٥ — ١٩٤٤ .

يقدم هذا الجزء الأخير من الرواية الجيل الجديد جيل أحفاد السيد أحمد عبد الجواد مسلطاً الضوء بوجه خاص على ابني خديجة (أحمد وعبدالمنعم شوكت) وخديجة ابنة السيد الكبرى .

وفي هذا الجزء الثالث من الرواية يموت السيد أحمد وتموت زوجته أمينة وبهذا ينتهي الجيل الأول بكل مايمثله من قيم وتقاليد . ويحتل الصدارة في هذا الجزء الجيل الثالث الجيل المتمرد الثائر بانتماءآته المختلفة ، في حين يستمر الجيل الاوسط ممثلا في كمال في حيرته وابحاثه المتصلة ، وخلال بحثه يلتقي بالمفكر الاشتراكي (عدلي كريم) صاحب مجلة (الانسان الجديد) ويتلمذ عليه ويعجب بارائه المتطرفة .

اختار الكاتب نجيب محفوظ هذين النموذجين (عبدالمنعم وأحمد شوكت) ليجسد من خلالهما تيارين فكريين ، الأول عبدالمنعم انضم الى جماعة الاخوان المسلمين ورأى في الاسلام علماً ودينا وفهماً في الحياة ولم تناقض عقيدته سلوكه لقد حرص على الزواج المبكر حتى لايخدش دينه .

ويمثل (أحمد شوكت) شقيق عبدالمنعم البطل الثوري فيتصرف في شجاعة البطل وايمانه بحقه ويغدو اكثر جرأة وامضى عزماً ، وها هو يعبر عن فهمه للفارق بين رؤيا البطل للثورة .

«ان الوظيفة نفسها يجب ان تكون موضوع استفهام ، أجل ان الاستقلال فوق كل نزاع ، اما معنى الوطنية بعد

ذلك فينبغي ان يتطور حتى يغني في معنى أشمل
واسمى» (١) .

ويلخص (عدلي كريم) صاحب مجلة (الانسان الجديد) رأي البطل الثوري في دور الحركة الثورية وفي طبيعة الثورة المرجوة .

«نريد مدرسة اجتماعية جديدة ، لان الاستقلال
ليس بالغاية الاخيرة ولكنه وسيلة لنيل حقوق الشعب
الدستورية والاقتصادية والانسانية» (٢) .

اختلف مسار أحمد الفكري فاتجه الى الايمان بالافكار التقدمية وقد ضاق بفكر طبقته البرجوازية ، فقد وصف فكر طبقته بأنه ذو عقد لابد من التحرر منها . وفي اثناء دراسته بكلية الأداب يتعرف بـ (علوية صبري) — زميلته — التي تنتمي الى الطبقة الارستقراطية .وقد دفعته اليها ثقافتها التي تماثل ثقافته ، وحين طلب الزواج منها ردته في فتور مدفوعة بنظرتها الطبقية ولم يفقده هذا الرفض ثقته بالنفس ولا بالمستقبل ، وهذا يبرز الفارق بينه وبين خاله كمال الذي جعل من حبيبته المثال (عايدة) . أحمد لم ينظر الى (علوية) شيء باهر يفوق المخلوقات بل شيء عابر ولم تتعدّ في نظره مستوى الفتاة التي أخفق معها ولا يعني هذا فشله فهو سرعان مايتجه الى تحقيق التكامل لحياته فيختار (سوسن حماد) التي تعمل في تحرير مجلة (الانسان الجديد) وقد اعترضت اسرته على عمله في هذه المجلة وعلى زواجه من ابنة عامل المجلة . لكن أحمد لم يهتم للأمر فقد أتخذ قراره الأخير ونفذه وقد التقت (سوسن) مع أفكاره فهي تؤمن باصلاح المجتمع وتوفير الكفاية والعدل . وهي تشعر بأن أحمد شوكت لم يزل برجوازياً في القليل جداً وهذا يؤثر على وعيه وثوريته. ويتضح الأثر الذي تركته في حياته فهي بوعيها وثقافتها كانت ناقدة له ومن ثم فقد ساهمت في تحرير فكره من رجعية طبقته وقد اعترف بهذا القول :

(١) السكرية /٣٨ .
(٢) السكرية /١٠٧ .

«من المسلم به كذلك ان العام الذي زاملت فيه سوسن حماد قد غيرني وطهرني لدرجة محمودة من البرجوازية المستوطنة في أعماقي...» (١) .

يقدم المؤلف نجيب محفوظ من خلال (سوسن) نموذجاً جديداً للمرأة المصرية هذا النموذج يتميز بالثقافة والعمل الجاد والاستقلال والثقة بالنفس.

ويبرز لنا من خلالها الفارق الكبير بين جيلين ، الاول المتمثل بخديجة وعائشة ابنتا السيد اللتين تريان الاهتمام بالمظاهر غاية مايجب ان تتحلى بها الفتاة ، بينما نجد سوسن على النقيض من ذلك تتقدم الوجه المشرق للوعي والايمان المصحوب بالعمل الجاد مما دفع أحمد ان يصفها: —

«ان ثغرها مشغول بالاشتراكية» (٢) .

ويبقى أحمد شوكت هو أول نموذج للبطل الثوري الايجابي في أدب نجيب محفوظ ، فهو ينخرط في العمل السري والعلني .

«يحاضر في الماركسية ويحرر المنشورات الخطيرة ويوزعها ويتوقع — بلا خوف — دخوله السجن بين حين وآخر» (٣) .

وقد ضرب المثل بسلوكه الجريء وبمطابقة افكاره لافعاله حتى بهر خالـه اللا منتمي الحائر الى الابد (كمال عبد الجواد) بتحديه لكل قيم وتقاليد الاسر البرجوازية العتيقة .

وبنهاية الجزء الثالث من الثلاثية تحمل العربة (أحمد شوكت وشقيقه عبدالمنعم) الى المعتقل ايذاناً بانتهاء الرواية وابتداء طفرة جديدة في حياة الثورة والثوري .

يرى احمد بدخوله السجن يرى الشعب البائس الذي يكافح من أجله على حقيقته ويقول لنفسه جملته العميقة .

---

(١) السكرية /٣١١ .
(٢) السكرية /٣١١ .
(٣) السكرية /٣١٣ .

«ان موقفاً انسانياً واحداً هو الذي جمعنا على اختلاف مشاربنا في هذا المكان المظلم الرطب ، الأخ والشيوعي والسكير والسارق على السواء ، كلنا واحد على تفاوت في قوة المناعة أو الحظ» (١) .

ان وجودهما بين جدران السجن ثمناً للتمسك بالعقيدة والايمان العميق بالمبادىء لقد كانت تجربة (أحمد) هي بداية لتحول خاله (كمال) من متاهات الشك الى راحة اليقين ، فيغبطه على جرأته وشجاعته ويعود الى كلماته التي قالها له عندما زاره في السجن .

«ان الحياة عمل وزواج وواجب انساني عام ، والواجب الانساني العام هو الثورة الأبدية وما ذلك الا العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الاعلى ...» (٢)

اننا نلمس استشراق مرحلة جديدة في حياة كمال اذ يقول متحدثاً عن أحمد ابن أخته لزميله (رياض) : —

«اتعلم ماذا قال ايضاً ، قال : أني أؤمن بالحياة والناس وأرى نفسي ملزماً باتباع مثلهم العليا ما دمت اعتقد انها الحق اذ النكوص عن ذلك جبن وهروب كما ارى نفسي ملزماً بالثورة على مثلهم ما اعتقدت انها باطل اذ النكوص عن ذلك خيانة ، وهذا هو معنى الثورة الابدية» (٣) .

وتبين الصفحة الأخيرة من الرواية التحول الكبير في حياة كمال اذ يطرح السؤال على نفسه :

«هل تستطيع ان تكون مدرساً مثالياً وزوجاً مثالياً وثائراً ابدياً (٤) .

ان السؤال يثبت لنا الانقلاب الفكري لدى كمال من خلال السطر الأخير

---

(١) السكرية /٣٨٥ .
(٢) السكرية /٣٩٢ .
(٣) السكرية /٣٩٣ .
(٤) السكرية /٣٩٦ .

من السكرية ففيه مايرمز عن ذلك باستخدام عنصر الطبيعة فهو يقول :

«وكان المغيب يقطر سمرة هادئة» (١) .

وكأن مغيب لحيرة كمال وقلقه وايذان ببزوغ فجر اليقين بعد ظلام الشك .

ب — الشخصيات الثانوية

لم ينس المؤلف نجيب محفوظ شخصياته الثانوية التي وردت في الثلاثية رغم طول المسافة الزمنية وكثرة الأجزاء التي تفصل ما بين الجزء الأول والجزء الثالث من الثلاثية .

فقد استخدم المؤلف هذه الشخصيات استخداماً ابتعد بها عن هامشية العمل الفني وأصر على ادخالها في السياق الدرامي لكي يستفيد من وجودها الذي يمنح العمل الفني خصوبة وحياة زاخرة مستمدة به تنبع منه وتصب فيه .

انه وضعها لخدمة مضمونه الروائي فعن طريقها كشف جانباً من جوانب الحياة السياسية آنذاك . من هذه الشخصيات (رضوان) ابن ياسين من زوجته الأولى — يصل إلى منصب (سكرتير وزير) عبد الرحيم باشا عيسى وكذلك شخصية جميل الحمزاوي المنتمي إلى الطبقة الشعبية والذي يعمل والده في وكالة السيد أحمد — عاملاً بسيطاً — يصل إلى منصب وكيل للنيابة ولا يفكر في الزواج الا حينما يصل إلى منصب قاضي ، حتى يتسنى له ان يصاهر وزيراً . وهكذا كان تقديم المؤلف لهذه الأسرة وما يتصل بها من شخصيات متلاحماً ومتطابقاً مع الحياة المصرية بوجه عام ومتضمناً لها .

نلتقي بشخصية (ياسين) الإبن الأكبر للسيد من زواج سابق لم يدم طويلاً ، انتقل بعده ياسين إلى بيت زوجة ابيه ، وقد ورث عن ابيه ولعه بمسرات الحياة ، ويقرر السيد ان يزوجه فيختار له الزوجة وهي ابنة أحد اصدقائه المقربين وحينما يدب الخلاف بين ياسين وزوجته — حيث ضبطته مع خادمتها نور — يقرر الأب ان يطلقها منه حفاظاً على صداقته مع والدها فالصداقة في حياة السيد شيء هام يحرص عليه ، فشخصية ياسين شخصية

(١) السكرية /٣٩٦ .

خائبة وبائسة غير قادرة على الافصاح عما يجول في نفسه من احتجاج على هذه السيطرة الجامحة من قبل الأب ، ويبرز المؤلف سيطرة الأب وقوته الطاغية عندما تلتقي بشخصية (عائشة) الابنة الصغرى للسيد . وهي نموذج للجمال والهدوء ، تقدم إلى خطبتها (حسن ابراهيم) ضابط قسم الجمالية ، ولا يسمح السيد حتى بمناقشة الأمر ، بل يرفض بحزم مبرراً ذلك بقوله :

« لن تنتقل ابنتي إلى بيت رجل إلا إذا ثبت لديّ
ان دافعه الأول إلى الزواج منها هو رغبته الخالصة
في مصاهرتي أنا .. أنا ..أنا »(١).

وكأن المؤلف أراد ان يجعل من سلطة الأب معادلاً للقدر الذي دهّم عائشة بعد زواجها من أحد ابناء آل شوكت هذا الزواج الذي بدأ سعيداً ولكن سرعان ما أسفر عن مأساة تدهم عائشة بموت زوجها وولديها — محمد وعثمان — أثر مرض طارىء ، وتلحقهم بعد سنوات نعيمة ابنتها الوحيدة الباقية من أسرتها الفانية .

والشخصية الأخرى (خديجة) الابنة الكبرى للسيد وكان حظها من الجمال ضئيلاً إلا أنها كانت وريثة أبيها في الانفة وسلاطة اللسان .

وكذلك شخصية (بدور) أخت (عايدة) حبيبة كمال التي كانت مثالاً في نظره . وتشاء الظروف ان تجمع بين بدور وكمال الذي كان يترقبها وخصوصاً عندما عرف أنها طالبة بقسم اللغة الانكليزية في كلية الآداب . وينتج من العلاقة القاء اضواء جديدة على شخصية البطل العائر المتردد إلى الأبد (كمال عبد الجواد) ويتوغل المؤلف في ضمير بطله ، وهو يواصل السير ويتساءل ، ترى أيريد حقاً ان يبقى أعزب لكي يكون فيلسوفاً أم أنه يدعي الفلسفة ليبقى أعزب ؟ ويستمر الموقف في السرد الدرامي المعتمد الذي ينهي به الكاتب دور (بدور) في الرواية . وتتفاعل العناصر الدرامية التي تساعد على دفع الأحداث والقاء اضواء جديدة على خبايا الشخصيات النفسية

(١) بين القصرين /١٨٠ .

وظروفهم اليومية . فعلى الرغم من هيام (كمال) الا ان رواسب الماضي التي تركتها اختها عايدة في نفسه ما زالت تؤثر في كيانه وتنخر في عظامه ، ثم تدهور الحال بأسرة شداد أثر في نظرة (كمال) الرومانسية إلى فتاة احلامه ثم ابراز البطل في صورة المتردد بين حياة الزوجة الرتيبة وحياة المفكر الانعزالية . كل هذه العناصر ساعدت على اضافة اللمسة الأخيرة في شخصية — بدور — ولمحة تأكيدية في شخصية كمال الهادية من الواقع وراء الحقيقة وبعد ذلك يحدث ان يراها مع خطيبها في الشارع . فيخيل اليه ان انسانا لو ذبح لعانى مثل الاحساس الذي يعانيه كمال في موقفه ، ان ابواب الحياة تغلق في وجهه وقد نبذ خارج الأسوار وهكذا يستمر المؤلف في انهاء خطوطه العامة للرواية بلمسات درامية رائعة .

ونجد فيما قاله المستشرق الفرنسي (الأب جوميه) عن الثلاثية خير خاتمة لهذا البحث « المؤلف ينظر إلى الأشياء من خلال شخصياته ولاشك في ان شخصيات الثلاثية قد رسمت بدقة وبراعة وافاضة ، جسدها المؤلف بعناية حتى ان القارىء يخرج فور الانتهاء من مطالعته للثلاثية بصورة شاملة لشخصيات مكتملة البنيات تحمل قيم وخصائص المجتمع المصري ، بل انها — وهذه في اعتقادي — أحدى سمات العالمية في الثلاثية ، تنطوي على قيم انسانية عامة ، ومن خلال دراستي لها تبينت اموراً عديدة .

قيم الأسرة السيكولوجية والاجتماعية . الصراع بين القديم والجديد ، ماهية الانسان في الجيل القديم والجيل الجديد ، دور الظروف الاجتماعية في تشكيل الوعي ، توعية الناس بقيم الانسان ، تصور العلم عند عبد الجواد وكمال والصراع بين كلا التصورين ، فكرة الوفاء عند كل من كمال وصديقته ...»(١).

وتبقى الثلاثية تتويج لمرحلة كاملة من الابداع الفني والتأمل الفكري والاجتماعي في أدب نجيب محفوظ . وتحمل في بنائها الفني والفكري

(١) الاب جوميه — ت — سمير عوض — الهلال — عدد خاص — فبراير ١٩٧٠ ص ١١٢ .

طابع الجديد الدائم لانها تعبر عن شيء جوهري في حياة الانسان ، فهي وحدة فنية متميزة ومتكاملة الجوانب . ويبقى الكاتب نجيب محفوظ نجماً ساطعاً في سماء الأدب العربي الحديث . وفي الختام اني لا أزعم الكمال لهذه الدراسة ولكني أمل ان أكون قد وفقت في البحث ليكون فاتحة لدراسات من شأنها اثراء حركتنا الأدبية والنقدية بدراسات وابحاث أكاديمية إلى مستوى مرموق ... والله ولي التوفيق .

«المصادر»

أ — الكتب : —

١ — احمد ابراهيم الهواري — البطل المعاصر في الرواية المصرية ، من منشورات وزارة الاعلام ١٩٧٦م .

٢ — أحمد محمد عطية — مع نجيب محفوظ — منشورات وزارة الثقافة / دمشق ١٩٧١م .

٣ — د. بدري عثمان — بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ — دار الحداثة ، بيروت ط ١ ، ١٩٨٦م .

٤ — د. حلمي المليجي — علم النفس المعاصر — دار النهضة العربية ١٩٧٢م .

٥ — سليمان الشطي — الاتجاه الرمزي في ادب نجيب محفوظ — رسالة ماجستير — آداب جامعة الكويت — ١٩٧٤م .

٦ — د. سيد حامد النساج — بانوراما الرواية العربية الحديثة — المركز القومي للثقافة والعلوم — بيروت — لبنان ط ١ ، ١٩٨٢م .

٧ — شكري محمد عياد — البطل في الادب والاساطير — دار المعرفة القاهرة ط ١ ، ١٩٥٩م .

٨ — كولن ولسن — ت — محمد درويش — فن الرواية — دار المأمون للترجمة والنشر ١٩٨٦ م — دار الحرية للطباعة .

٩ — محمود أمين العالم — تأملات في عالم نجيب محفوظ — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م .

ب – الدوريات : –

١ – الآداب – انور المعداوي – ابريل ١٩٥٨م .

٢ – الآداب غالي شكري ، السنة الثامنة ، العدد السادس ، حزيران ١٩٦٠م .

٣ – الاقلام – د. محسن الموسوي ، السنة التاسعة – العدد الثالث ١٩٧٣م.

٤ – الأقلام – اسعد اسكاف – العدد الخامس – مايس ١٩٨٩م . السنة الرابعة والعشرون .

٥ – الفكر المعاصر – حسن حنفي – العدد السادس ، ابريل ١٩٧٠م .

٦ – الهلال – المستشرق الاب جاك جوميه – عدد خاص – فبراير ١٩٧٠م . دار الهلال – القاهرة .

الروايات : –

١ – نجيب محفوظ – بين القصرين – مكتبة مصر – القاهرة ، الطبعة الثامنة .

٢ – نجيب محفوظ – قصر الشوق – مكتبة مصر – القاهرة ، الطبعة السابعة .

٣ – نجيب محفوظ – السكرية – مكتبة مصر – القاهرة ، الطبعة السادسة.